القوميه العربية فى الميزان

بقلم

عبد القادر حاتم

للاستعمار فى منطقة الشرق العربى مصالح متعددة . . مصالح اقتصادية ، ومصالح سياسية ، ومصالح استراتيجية ، ومسألة السيطرة على هذه المنطقة ليست مسألة حيوية فحسب بل إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة للاستعمار ، وليست هناك مغالاة فى هذا القول إذ أن العالم شاهد نتائج غلق قناة السويس وحدها على كبرى الدول الاستعمارية : بريطانيا وفرنسا . . إذ أنهما أفلستا اقتصادياً ، وتوقفت مصانعهما ، وغدت عاصمتا بلادهما وأهم المدن بها وكأنها مهجورة بعد أن تعطلت سياراتها ، وكاد البرد يقضى على أهلهما . .

إذن فلا بد للاستعمار من أن يخلق الوسائل المشروعة — وغير المشروعة — للسيطرة على هذه المنطقة ، وتحطيم شخصيتها المعنوية . .

ولكن . . هل نجحت خطط الاستعمار ؟

لقد حاول شتى الطرق . . حاول تقسيم هذه الدول سياسياً ، وإشاعة الفرقة بينها ، ثم إشاعة الفرقة بين كل بلد على حدة . . فزادهم ذلك وحدة .

وحاول تحويل أبناء هذه المنطقة عن ثقافتهم القومية وفرض ثقافات أجنبية عليها ، بكل ما تحمله هذه الثقافات من عقائد . .

وحاول أن يخلق لنفسه جيلا من أبناء هذه المنطقة يتشربون ثقافته حتى يتحولوا عن مصالح بلادهم . . فكان ذلك وبالا عليهم . . وقامت الثورات ضدهم فى كل مكان . .

وحاول إضعاف هذه المنطقة عسكرياً وجعلها دائماً تحت سيطرته . .

وحاول تحطيم هذه الدول صناعياً ، وإيهامها أنها ليست بلادا صناعية حتى تظل دائماً سوقاً لصناعته ومورداً يستنزف منه المال .

ثم كلل هذه المحاولات جميعاً بمحاولة خلق دولة وسط هذه المنطقة من عصابات صهيونية ، وبعض المشردين من هنا ومن هناك ، وظل الاستعمار ينفخ فى هذه الدويلة الناشئة لكى يبعث فيها الحياة .

لقد ظن أنه إذا سمى عصاباته بدولة فسيقضى على القومية العربية نهائياً ، وأنه بذلك يكون قد وضع خنجراً فى ظهر العرب ، حتى إنه كلما سولت لهم أنفسهم التطاول على سلطانه طعنهم فى ظهورهم ، وشل حركتهم ، وبذلك يجعلهم تحت تهديد دائم وخوف مستمر . .

ولكن هل جازت حيل الاستعمار ؟ وهل أفلحت خططه ؟ أما عن فلسطين ، فبالرغم من احتلال أرضها ، ومشاكل إسرائيل المالية ، ومشاكل الهجرة وتوفير الطعام والعمل ، ومشاكل الجنسية والاضطهاد العنصرى ، والتفرقة العنصرية ، وبالرغم من جرائمها واعتداءاتها على المواطنين العرب ، فلا تستطيع أن تحقق الهدف السياسى الذى قامت من

أجله ، ألا وهو تحطيم القومية العربية . .

وبالرغم من كل المساعدات التى كان يكيلها الاستعمار لإسرائيل بغير حساب ، وبالرغم من الأسلحة التى كانت تتدفق عليها ، وتشجيعها على العدوان ، لم يزد الاستعمار العرب إلا وحدة وقوة . .

لقد ثارت ثائرة الاستعمار لهذا الفشل الذريع ، إن القومية العربية روح جارفة ، وعاطفة تختلج فى قلب كل عربى ، من المحيط الأطلسى غرباً إلى الخليج العربى شرقاً .. لقد أراد أن يحطمها وراح ينسج الخطط مع ربيبته إسرائيل ، وحدد موعداً للقضاء على القومية العربية يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، فالكل يعلم أهداف هذه الحرب وأنها كانت موجهة أولا وقبل كل شىء إلى القومية العربية التى أقضت مضاجعه ، وقضت على الأعم الأغلب من النفوذ الاستعمارى فى منطقة الشرق الأوسط . .

لقد أصبحت سياسة هذه الدول العربية ترسم فى عواصمها ، معبّرة عن آمال شعوبها ومتجاوبة مع إيمانهم بالحرية والعدل والسلام العالمى ، ولا ترسم فى منزل المندوب السامى أو سفراء دول الاستعمار . .

وأصبح المحرك وراء هذه السياسة هو رغبة الشعوب وآرائهم ، مستمدين هذه الرغبات من عروبتهم وقوميتهم ووطنيتهم الأصيلة . أصبحوا يترجمون أفكارهم بالأعمال ، الأعمال السريعة الحازمة فى سبيل أمتهم العربية ونصرتها وإعلاء شأنها . . وتبلورت سياسة هذه الدول وأصبحت لها شخصية مستقلة لا غربية ولا شرقية ، تنادى باستقلال جميع الدول ، وعملت على تصفية الاستعمار .

وقد كانت الثورة المصرية كالبعث الجديد ، والأمل الذى دب فى قلوب العرب . . الأمل فى الخلاص والتحرر والقضاء على الفساد أيا كان مصدره ، والقدرة على الوقوف فى وجه المؤامرات والإيمان بحق العرب . .

وبهذه الروح الجديدة أثبتت القومية العربية وجودها فى المؤتمرات الدولية ، وأصبح لها كيان ودور تلعبه ، وفى باندونج ظهرت هذه القومية ، وكانت من أهم الدول الآسيوية والإفريقية فى المؤتمر .

وبهذه السياسة جنبت القومية العربية العالم ويلات حرب عالمية ثالثة طاحنة فى خلال العدوان الثلاثى الغادر على مصر .

وبهذه السياسة لم ندع للكتل المتنافسة مجالا لوضع أقدامها فى هذا المحيط وسيطرتها على الشرق الأوسط ، وهذا هو الفارق بين سياسة الحياد الإيجابى وبين الارتباط بالأحلاف كحلف بغداد مثلا ، فقد صرح مستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية أخيراً بأن دول هذا الحلف بعد أن وجدت فى بريطانيا حليفاً غير قوى فزعت إلى أمريكا للتدخل السريع فى الشرق الأوسط . ولو أن هذه الدول الأربع قد سلكت مسلك الحياد الإيجابى لما تولاها هذا الفزع ولما طلبت هذا التدخل السافر الصريح .

إن القومية العربية اليوم قد أصبحت قوة فعالة فى المحيط الدولى تساندها الدول المحبة للسلام ، والشعوب الحرة فى العالم أجمع ، وهى قوة بذاتها لأن تحت يدها إمكانيات ضخمة ، وتربض فى موقع استراتيجى خطير .

والقومية العربية قوة بعد أن تقدمت إلى طريق الاتحاد الفيدرالى

وأصبح الدفاع عن هذه المنطقة منبثقاً من نفس هذه المنطقة دون أن تطلب حماية من أحد لأنها قادرة على الدفاع عن نفسها ، ودون أن تقحم نفسها فى أحلاف عسكرية مع أحد حتى لا ترتبط بكتلة من الكتل ، بل هى تؤمن بالحياد الإيجابى .

لقد أصبحت إرادة الشعوب ممثلة فى سياسة حكومات الدول العربية .

لقد انتهى الوهم القديم من أن دول هذه المنطقة لا يمكن أن تتحرر من سيطرة الاقتصاد الاستعمارى ، وأنها لا يمكن أن ترسم لنفسها مستقبلها ، انتهى هذا الوهم يوم أن تحررت هذه الدول من مخاوفها واستعادت ثقتها بنفسها . .

وكان على الدول العربية أن تتحرر من الاستعمار تماماً ، وأن ترفض الاستقلال الناقص لأنه أخطر عليها من الاستعمار نفسه . .

والاستقلال الناقص هو قبول أنصاف الحلول ، والسماح للاستعمار وأعوانه بالتغلغل فى صفوف الشعب ، فيكون نشاطه كالسرطان فى دماء القاعدة الشعبية ، يبث فيها روح الرجعية والهزيمة . .

وهناك صلة وثيقة بين قيام الثورة المصرية ، والقومية العربية الخالصة . .

فالأمانى المشتركة التى تملأ أفق كل عربى وتسيطر على إحساسه ، والأهداف واحدة ، والوعى العربى الذى بزغ فجره ، والتحرر من السيطرة الأجنبية فى كل ناحيـــة من نواحى السياسة والاجتماع والاقتصاد كانت من الدوافع التى أشعلت الثورة فى قلوب أبنـــاء مصر .

لقد بدأت اليوم مصر وسوريا تقيم قواعد هذا الاتحاد ، وتنير الطريق السوى أمام الدول العربية الأخرى .

وقد وجد الاستعمار فى العصابات الإسرائيلية مخلب القط فلما أن ضعف أمام الجمرات العربية المتوهجة وارتعدت قدمه ، وكاد النمر يمزق أوصاله هبّ الاستعمار ليدفع عنه ، وقد أسفر النقاب عن وجهه .

وبخطة مصر البارعة فوتت على الاستعمار ما يبغى فحفظت عليها جيشها والجيوش العربية الأخرى .

وقد بدت براعة هذه الخطة فى انكشاف أمر المؤامرة على استقلال سوريا من جانب الاستعمار والمستعمرين .

إن هؤلاء المتآمرين كانوا يودون أن يضطرب حبل الأمور فى البلاد العربية ثم يتدخلون ويعيدون للاستعمار نفوذه الأول الذى كان .

ولكن خاب ظنهم ! فالقومية العربية أصبحت أقوى وأمنع من أن تقتحم وأن ينال منها أدنى منال .

إن أهم سمة تتسم بها القومية العربية اليوم أنها صمدت صموداً رائعاً لمؤامرات الاستعماريين فى الشرق الأوسط .

وأنها لم تأبه بكل ألوان الضغط والتهديد .

إنها رسمت لنفسها طريقاً ، وهى تسير فى هذا الطريق دون تردد أو فزع .

هذا الطريق هو طريق الحياد الإيجابى .

وبدأت اليوم المحادثات الجدية لترجمة العواطف والأحاسيس إلى حقائق .

ولا شك أن الدول العربية الأخرى أخذت تفكر تفكيراً جدياً فى هذا الاتحاد .

لقد علت اليوم هذه الدول على القشور ونفذت إلى اللباب .

إنها رأت كيانها لن يدعم إلا بهذا الاتحاد الوثيق .

وقد أثبت التاريخ أن هذا الاتحاد إذا وجد كان له خطره وشأنه فى مستقبل هذا الشرق .

هذا الاتحاد فى طريقه إلى التكوين إن عاجلا أو آجلا .

وبهذه المناسبة نذكر أن الشعوب العربية بأسرها تؤيد الاتحاد كل التأييد وأنها راغبة فيه كل الرغبة ، وأنه ما من عربى يؤمن بعروبته إلا ويتشى عند ما يسمع بالتقدم السريع نحو هذا الهدف المرتجى .

ونود أن نذكر فى هذا الصدد أن القومية العربية إنما يدعمها ماض عريض ، ومجد مؤثل ، وأن العرب يعيشون فى أشرف بقاع الأرض ، مهد الحضارات العريقة ، والأديان السماوية ، والتقاليد الطاهرة الكريمة ، والآداب الخالدة . .

فجدير بهم اليوم أن يفخروا بقوميتهم ، وأن يتعصبوا لها ، وخليق بهم أن يرفعوا رؤوسهم عزة وكرامة . .

أما استقلالهم الذى ظفروا به بعد كفاح طويل فلن يتخلوا عنه أبداً ، ومن يظن أنهم لن يواصلوا الكفاح فهو واهم ، إنهم سيدافعون عن كرامتهم وحريتهم بدمائهم كما فعلوا دائماً .. لن يتهاونوا قط ، وسيظلون متمسكين بسيادتهم وحقهم وأهدافهم ومثلهم الرفيعة العليا . .